

# أطباء.. لكنهم أدباء مواقف وعبر من حياتهم

الدكتور

حسان شمسي باشا

استشاري القلب في مستشفى الملك فهد للقوات المسلحة بجدة

زميل الكلية الملكية للأطباء في لندن

زميل الكلية الملكية للأطباء في إيرلندا

زميل الكلية الملكية للأطباء في غلاسجو

زميل الكلية الأمريكية لأطباء القلب

## بسم الله الرحمن الرحيم

### مقدمة الكتاب

علاقة الطب بالأدب علاقة حميمية على مر العصور.. و واهم من يظن أن هناك تناقضاً بين عالمي الطب والأدب.. فالبعض يتصور أن الطب والأدب لا يلتقيان ولا يجتمعان.. ربما لأنهم لم يسمعوا إجابة شاعر الأطلال الطبيب إبراهيم ناجي حين سئل عما دفعه لكتابة الشعر.. وهو الطبيب الماهر فقال:

النَّاسُ تَسْأَلُ وَ الْهُوَاجِسُ جَمَّةٌ طَبٌّ وَ شِعْرٌ ! كَيْفَ يَجْتَمِعَانِ ؟

الشَّعْرُ مَرَحْمَةُ النِّفُوسِ وَ سِرُّهُ هِبَةُ السَّمَاءِ وَ مَنَحَةُ الدِّيَانِ

وَ الطَّبُّ مَرَحْمَةُ الْجِسْمِ وَ نَبْعُهُ مِنْ ذَلِكَ الْفَيْضِ الْعَلِيِّ الشَّانِ!

وسئل الطبيب الشاعر عصام صدقي العمدة: "ما هو الرابط الذي يجده بين الشعر والطب؟" .. فقال:

سألوا مرة الشاعرَ السوري وجيه البارودي نفسَ السؤال فأجابهم بيت شعر يقول فيه:

أتيتُ الى الدنيا طبيباً وشاعراً أدوي بطبي الجسم والروح بالشعر .. وأنا أقول:

الشعر من نفحة الديان مورده يشفي النفوس ويشفي الجسم و العلل

كرسْتُ شعري لأهل الحب أنظمه فما مللتُ و وحي الشعر ما بخلا

فالحب للشعر نبغُ كلما نهلْتُ منه القوافي تعالي سماؤه و حلا

ولا أدل على ذلك من هذا العدد الكبير من الأعلام الذين جمعوا بين الطب والأدب .. وأكثرهم جمع بين

سماعته وقلمه بكل مهارةٍ واقتدار.. وقليل من هجر عيادته إلى ميادين الأدب الفسيحة.

ومن يقلّب صفحات الأدب العالمي والعربي .. تطالعه وجوه العشرات من المبدعين الذين جمعوا بين

مهنتهم العملية وعطائهم الأدبي..

ولا تزال الساحة الأدبية حتى يومنا هذا تجذب الأطباء الذين لم يسمحوا لمهنتهم أن تسرق منهم سلوكهم

وملاذهم.. فربما دونوا على ظهر "الروشتة" شيئاً من خلجات نفوسهم.. أو عبروا على قصاصات من

الورق عن مشاعرهم وأحاسيسهم.. فأثروا عوالم الشعر والقصة .. والرواية والإبداع..

وإذا كان الطب مهنة إنسانية رائعة.. فإن الأدب هو طب النفوس وكما لها.. يسعف الطب في شفاء

قلوب رقيقة .. ونفوس حائرة.. فالطب يدوي الجسد.. والأديب يتغلغل في أعماق النفس البشرية..

ليخلصها مما تعانيه من ألم وقلق . فالطب والأدب يُشكلان تناغماً جميلاً..هدفه الأسمى هو الإنسان..وليس إلا الإنسان..

وكثير من الأطباء صاروا أدباء وكتاباً لامعين.. تركوا بصماتهم في شعرهم ونثرهم .. بل إن البعض يرى أن الأطباء كانوا ولا يزالون من أمهر الروائيين في العالم، وأكثرهم قدرة على فتح آفاق الخيال في مناطق مجهولة من بواطن النفس البشرية.

فالأطباء يعيشون مشاعر إنسانية هائلة.. ويتعرضون لمواقف استثنائية دقيقة.. يقابلون فيها شتى أنماط البشر.. ويخالطون المشاعر و الأحاسيس من خوف و قلق..ونجاح و تضحيات.

وبحكم مهنتهم يتابع الأطباء قصصاً غريبة.. ووقائع عجيبة.. يمتزجون بلحظات الحزن والفرح.. ويشتبكون مع خواطر مولدة للأدب شعراً.. نثراً.. وإبداعاً.

تلك التجارب تُغري كل صاحب حس إبداعي بأن يكتب.. أن يفيض بما اختزنه عقله الباطن من مشاهدات وخبرات على الورق أو الحاسوب..<sup>1</sup>

يقول الدكتور مصطفى محمود: ”الطبيب هو الوحيد الذي يحضر لحظة الميلاد ولحظة الموت.. وكل الناس يخلعون ثيابهم وأسرارهم بين يدي الطبيب.. فهو الوحيد الذي يباشر الحياة عارية من جميع أقمعتها.. وبما أن الطب علم، والأدب علم.. فالتكامل في الحياة البشرية قضى بأنه لا غنى لأحدهما عن الآخر.. يعني الطب والأدب، وكذلك الطبيب والأديب.“

ويذكر الدكتور أحمد خالد توفيق في كتابه "اللغز وراء السطور" أنه لا توجد مهنة تعان عري الإنسان مثلما تفعل مهنة الطب، فلا توجد مهنة تتعامل مع الإنسان في حضيض ضعفه ووهنه وخوفه مثل الطب، مهنة ترغمك على سماع آخر كلمات المحتضرين، وهلوسة الغائبين عن الوعي، مهنة ترغمك على أن ترى مشهد الموت الرهيب مراراً، مهنة يتجرد فيها كل إنسان وزيرا كان أو متسولاً من ثيابه وزيفه أمامك" ..

وهناك قصة وحكاية وراء كل مريض.. وما أكثر الطوائف التي تمرُّ بالأطباء الذين يتعاملون مع مختلف شرائح البشر في طباعهم وتكوينهم وانتماءاتهم وهذه كلها تشكّل رافداً ومادة إبداعية ثرية يستفيد منها

1 . مصطفى عبيد:الأدب يُغري أصحاب مهنة الرحمة، العرب : 11 يونيو، 2020 ( بتصرف)

وتغنيه بشكل مباشر أو غير مباشر. فالإبداع ملاً ومرفاً للروح والبدن.. والمهنة مخزنٌ مليء بالمواد الأولية التي تُثري التجارب الإنسانية<sup>2</sup>

ولو سألت كثيراً من الناس أن يعددوا لك أسماءً لأطباء أدباء.. لما استطاعوا تذكر سوى بضعة أسماء.. لكن الواقع غير ذلك.. ففي هذا الكتاب ما تجاوز المقتنين ممن مارس الطب وأبدع في الأدب أو يزيدون..

وليس هذا الكتاب دراسة أكاديمية.. وما هو برسالة دكتوراة.. ذلك أني لم أتبع فيه منهجاً واحداً لكل تراجم الأطباء الأدباء.. فلعلي أكون قد أطلت في واحدة.. واختصرت في أخرى.. فقد لا أجد بغيتي في ما توفر لي من مراجع ومقالات حول هذا الطبيب الأديب أو ذاك.. لكنني كنت أسعى دوماً لإنتقاء ما يفيد القارئ ويوسع آفاقه بمعلومة.. أو يمتعه بفكرة.. أو يطربه بأبيات من الشعر!.. وقد لا أكون قد اخترت الأفضل من ثمار هذا الأديب أو ذاك.. ولكن حسبي أني قدمتُ تعريفاً موجزاً بهذه الكوكبة الرائعة من الأطباء الأدباء.. يتلمس القارئ فيها شيئاً من تلك العوالم.. ويخلق معهم في إبداعاتهم..

أبحرت معهم على مدى عقدين من الزمن.. وقرأت عنهم ولهم.. ونحلت من ينابيع أفكارهم.. مثلما قطفت من ثمار إبداعاتهم..

كان غاية هديني أن أقدم للقارئ خلاصة طيبة مفيدة تنبئ عن تلك النخبة من الأطباء الذين برعوا أيضاً في الأدب.. مستلهمين من الطب بعض همومه وأشجانه.. أوردت في ثنايا الكتاب مواقف وعبراً من حياتهم.. فيها دروس للمتأملين وعظات للمسترشدين.. نستلهم من خبراتهم وآرائهم موعظة وذكرى.. ونتعلم من معاركهم مع الحياة.. ما ينفعنا في مواجهة الخطوب والمدهلمات..

بدأت العمل في هذا الكتاب قبل أكثر من عشرين عاماً.. وبين الفينة والأخرى أعود إلى الكتاب.. أضيف وأزيد.. حتى وصل عدد الأطباء الأدباء الذين ترجمت لهم إلى ما يربو على مئتي طبيب أديب.. واقتصر في عليه على الأطباء الأدباء العرب ممن عاش مع بداية القرن العشرين فما بعد.. وذلك

<sup>2</sup> محمود محمد أسد: أطباء أدباء من حلب (بتصرف)

مع بزوغ كليات الطب في علمنا العربي في أوائل القرن العشرين .. فما وضعتُ ترجمةً إلا لطبيب تخرج في كلية الطب.. فرغم أن الأستاذ محمد صادق الخليلي قد ألف " معجم أدباء الأطباء " في عام 1946 .. إلا أنني لم أضع له ترجمة في الكتاب .. فما دخلَ كلية الطب أبداً.. بيد أنه لازم والده وعمه الطبيب مدة عامين.

وليس هذا الكتاب معجماً يضم كل الأطباء الأدباء العرب في العصر الحديث ولن يكون .. فلا شك أن هناك العديد من أدباء الأطباء الموهوبين هنا وهناك .. الذين لم أصل إليهم أو أعتز على ترجمة لهم .. فإن وصلتُ إليهم استدركت تراجمهم في طبعة ثانية إن شاء الله .. وسيتبع هذا الكتاب ، بإذن الله ، كتابٌ آخر بالإشتراك مع الدكتور الأديب عمر وزان نستعرض فيه مزيداً من الشواهد والمقتطفات من إبداعات ثلة من الأطباء الذين تميزوا وأبدعوا أدبياً وفكرياً .. بذلت قصارى جهدي في تأليف هذا الكتاب .. آملاً أن يجد فيه القارئ ما يسرُّه وما ينفعه .. فإن وُفقتُ فالله الحمد والمنة .. وإن أخطأتُ أو قصرتُ فمني ومن الشيطان .. والله من وراء القصد والحمد لله رب العالمين ..

جدة 26 أيلول ( سبتمبر ) 2020

حسان شمسي باشا